



فن السرد

في صور من حياة الصحابة

لعبد الرحمن الباشا (*)

قد يبدو من السهل للوهلة الأولى تحويل مادة تاريخية منجزة إلى عمل أدبي، ولكن مثل تلك السهولة محض وهم، ولا سيما عندما يسعى الكاتب إلى الحرص على المادة التاريخية، فهو هنا يقوم بدورين: الدور الأول هو دور المؤرخ، وعليه أن يحقق المادة التاريخية، وأن يختار منها الصحيح والضروري والمفيد، وما هو مناسب للإبداع. والدور الثاني هو دور الأديب، وعليه أن يفكر فيمن يتوجه إليهم من المتلقين، وأن يختار النوع الأدبي الذي سيعبر من خلاله، وأن يعنى بالمفاهيم الأولية على الأقل للنوع الأدبي الذي اختاره، وبذلك لا بد لمن يتصدى لهذه المهمة أن يكون أديباً مؤرخاً، أو مؤرخاً أديباً، أي أن يمتلك موهبة الأديب وثقافة المؤرخ، فهو مقيد بمعرفة التاريخ. ويريد أن يكون حراً منطلقاً في عالم الإبداع. ومن هذا التوتر بين الحرية والقيّد تظهر مشكلة كاتب القصة التاريخية.



د. أحمد زياد محبك - سورية

(*) من بحوث دكتور عبد الرحمن الباشا في دار الثقافة بدمشق، وزارة الثقافة السورية.

«مواقف في حياة الصحابة»

إن الفكرة الأساسية التي بني عليها الكتاب هي تقديم صور من حياة الصحابة، والمقصود بالصور هنا هو مواقف في حياة أولئك الرجال، وليس المقصود الترجمة لهم أو التأريخ لحياتهم، ولذلك فإن أهم ما في الكتاب هو اختيار تلك المواقف، وهي مواقف تربوية سامية، لا تدل على أفراد عباقرة ملهمين متميزين، بل تدل على مجتمع حي متحرك، تغيرت فيه المفاهيم والقيم والعادات والأخلاق، وكان وراء هذا التغيير الإسلام بمنحه الإنسان قيم الحق والعدل وحب الآخر والرغبة في بناء مجتمع يسعى فيه الجميع إلى طاعة الرسول، وبيئته فيه الجميع مرضاة الله تعالى.

والذي يؤكد ذلك أن الكتاب يقدم مواقف كثيرة في حياة خمسة وستين رجلاً، وما هم بالقليل، ومما لا شك فيه أن مثلهم كثير، والأمر لا يتعلق بهم وحدهم، لأنهم لا يمكن أن يكونوا حالة شاذة أو فريدة، إنما هم نتاج مرحلة، وتعبير عن روح عصر، فهم يحيون من أجل مبدأ، هو الإسلام، وسعيًا لهدف، هو الله،

والله تعالى هو المحرك لأفعالهم.

وتبدو تلك المواقف أو الصور من أهم ما في الكتاب، ومن أهم ما في حياة أولئك الرجال، وهي مواقف تبدو اليوم من المعجزات والخوارق والعجائب والغرائب، بل تبدو نوعاً من الخيال المستحيل، ولا يمكن تفسيرها على أنها طفرة، ولا يمكن تصنيفها على أنها عجائبية، ولا بد من فهمها في إطار الهدف الذي حركها، ولا بد من تفسيرها في إطار القيم التي كانت تسعى إليها.

ومن المحاولات الجادة في انفاذ عبر التوتر بين القيد التاريخي وحرية الإبداع محاولة قدمها الدكتور عبد الرحمن الباشا (١٩٢٠ - ١٩٨٦) في كتابه «صور من حياة الصحابة» رضي الله عنهم، ويتضمن الكتاب ملامع من حياة خمسة وستين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ، والكتاب موضوع بأسلوب سردي مبسط، لتربية الفتيان والفتيات، فهو كتاب تربوي، مبني على معطيات التاريخ، يحرص على التقيد بها، ولكنه لا يقدم تاريخاً، لأنه لا يترجم لأولئك الصحابة، ولا يقدم سيرة حياتهم كاملة، إنما

يختار مواقف بارزة في حياتهم، وملامح متميزة في شخصياتهم، ويقدمها بأسلوب سردي، فيعنى برسم ملامحهم الشخصية، ويحلل دوافعهم النفسية.

وقد طبع الكتاب في دار النفائس ببيروت عام ١٩٩٢ ويقع في ٥١١ صفحة، ويتألف من سبعة أجزاء صغيرة في مجلد واحد، ويتضمن الكتاب صوراً من حياة ثمانية وخمسين صحابياً، فيهم أربع نسوة، ثم نشر ثانية في دار الأدب

الإسلامي في القاهرة عام ٢٠٠٦، وأدخلت عليه بعض التعديلات، فتضمن صوراً من حياة خمسة وستين صحابياً، إذ أضيف إليه جزء ثامن، وسحب منه ما تعلق بالصحابييات، وألحق بكتاب آخر عنوانه: «صور من حياة الصحابييات»، وتضمنت هذه الطبعة نبذة عن حياة المؤلف بقلم نجله يمان، وتعريفاً بأهم مؤلفاته، وتقع هذه الطبعة في ٥٧٥ صفحة، وإليها تحيل أرقام الصفحات في هذا البحث.





«فقر الحاكم وعفته:

ومن تلك المواقف العادية في عصرها الغريبة في سائر العصور عفة الحاكم وفقره، فقد ولّى عمر بن الخطاب سعيد بن عامر الجمحي على حمص، «وما هو إلا قليل حتى وفد على أمير المؤمنين بعض من يثق بهم من أهل حمص، فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أسد حاجتهم، فرفضوا كتاباً فإذا فيه فلان وفلان وسعيد بن عامر، فقال: ومن سعيد بن عامر؟ فقالوا: أميرنا؟ قال: أميركم فقير؟ قالوا: نعم، والله إنه لتمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار، فبكى عمر حتى بلت دموعه لحيته، ثم عمد إلى ألف دينار، فجعلها في صرة، وقال: اقرؤوا عليه السلام مني، وقلوا له: بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك.

جاء الوفد لسعيد بالصرة، فتظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يبعتها عنه، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! كأننا نزلت به نازلة، أو حل بساحته خطب، فهبت زوجته مذعورة وقالت: ما شأنك يا سعيد؟ أمات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، دخلت علي الدنيا لتفسد آخرتي، وحلت الفتنة في بيتي. قالت: تخلص منها! فأخذ الدنانير فجعلها في صرر، ثم وزعها على فقراء المسلمين» (ص ٢٥-٢٦).

«قتل الأب في معركة لنصرة الإسلام:

إن ما يبدو من المواقف غريباً بالنسبة إلى واقعنا، أو مدهشاً، أو غير متوقع، هو موقف عادي بالنسبة إلى الصحابة، بسبب إيمانهم القوي، ومن تلك المواقف: إقدام أبي عبيدة بن الجراح على قتل والده في المعركة، فهو موقف غرائبي في مجتمع جاهلي، يعتد فيه المرء بنسبه، ويفخر بانتماؤه إلى أسرته وعشيرته وقبيلته، وإذا بأبي عبيدة يخالف ذلك كله، ويجعل انتماءه إلى دينه، أي إنه يجعل

الانتماء إلى الفكر والمبدأ والعقيدة، لا إلى العشيرة، ومثل هذا الانتماء جديد على المجتمع الجاهلي، وهو ما بناه الإسلام، فجعل الانتماء إلى الدين لا إلى النسب، وهذا يدل على قوة الإيمان، أي قوة الاقتناع بالمبدأ، ولكن لا بد من وضع هذا القتل في إطاره، فهو لم يأت هكذا مفاجأة، وإنما كان في الحرب وفي خضم المعركة، وبعد إصرار الأب على قتل ولده، والولد يتحاشاه، وفي مشهد القتل ما يبرر ذلك القتل، وهو يجري على النحو التالي: «انطلق أبو عبيدة يوم بدر يصول بين الصفوف صولة من لا يهاب الردى، فهابه المشركون، ويجول جولة من لا يحذر الموت، فحذره فرسان قريش، وجعلوا يتنحّون عنه كلما واجهوه، لكن رجلاً واحداً منهم جعل يبرز لأبي عبيدة في كل اتجاه، فكان أبو عبيدة يتحرف عن طريقه ويتحاشى لقاءه، ولجّ الرجل في الهجوم، وأكثر أبو عبيدة من التنحي، وسد الرجل على أبي عبيدة المسالك، ووقف حائلاً بينه وبين قتال أعداء الله، فلما ضاق به ذرعاً ضرب رأسه بالسيف ضربة فلقت هامته فلقتين، فخر الرجل صريعاً بين يديه...» (ص ٩٠).

والرجل الصريع هو عبد الله بن الجراح والد أبي عبيدة، ويعلق الكاتب على الموقف فيقول: «لم يقتل أبو عبيدة أباه، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه، فأنزل الله سبحانه في شأن أبي عبيدة وشأن أبيه قرآناً، فقال علت كلمته: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة) (ص ٩١).



«روح الفداء عند الشباب؛

ومن تلك المواقف أيضاً ما يتجلى فيه روح الفداء عند الشباب، ولا سيما ما يظهر عند أسامة ابن زيد، «ففي يوم أحد جاء أسامة بن زيد مع نفر من صبيان الصحابة يريدون الجهاد في سبيل الله، فأخذ الرسول ﷺ من أخذ ورد منهم من رد لصغر أعمارهم، فكان من جملة المردودين أسامة بن زيد، فتولى وعيناه الصغيرتان تفيضان من الدمع حزناً ألا يجاهد تحت راية رسول الله ﷺ».

وفي غزوة الخندق جاء أسامة بن زيد أيضاً ومعه نفر من فتيان الصحابة، وجعل يشد قامته إلى أعلى ليحيزه رسول الله، فرق له النبي عليه الصلاة والسلام وأجازه، فحمل السيف جهاداً في سبيل الله، وهو ابن خمس عشرة سنة.

وفي يوم حنين حين انهزم المسلمون ثبت أسامة ابن زيد مع العباس عم الرسول ﷺ، وأبي سفيان بن

الحارث، وستة نفر آخرين من كرام الصحابة، واستطاع الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الفئة الصغيرة المؤمنة الباسلة أن يحول هزيمة أصحابه إلى نصر...

وفي يوم مؤتة جاهد أسامة تحت لواء أبيه زيد ابن حارثة وسنه دون الثامنة عشرة، فرأى بعينه مصرع أبيه، فلم يهن، ولم يتضعض، وإنما ظل يقاتل تحت لواء جعفر بن أبي طالب، حتى صرع على مرأى منه ومشهد، ثم تحت لواء عبد الله بن رواحة، حتى لحق بصاحبيه، ثم تحت لواء خالد بن الوليد، حتى استنقذ الجيش الصغير من براثن الروم.

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة أمر الرسول الكريم ﷺ بتجهيز جيش لغزو الروم، وجعل فيه أبا بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وأبا عبيدة ابن الجراح، وغيرهم من جلة الصحابة، وأمر على الجيش أسامة بن زيد، وهو لم يتجاوز العشرين بعد... ثم ما لبث أن فارق الرسول ﷺ الحياة،



النجم والشجر والحجر تسبح بحمد ربها وتقدس له، فتأقت نفس عباد بن بشر إلى العبادة، واشتاق قلبه إلى القرآن، وكان أحلى ما يحلوه القرآن إذا رتلته مصلياً، فيجمع متعة الصلاة إلى متعة التلاوة، فتوجه إلى القبلة ودخل في الصلاة، وطفق يقرأ من سورة الكهف بصوته الشجي الندي العذب، وفيما هو ساجد في هذا النور الإلهي الأسنى غارق في الألاء ضيائه، أقبل رجل يحث الخطى، فلما رأى عباداً من بعيد منتصباً على فم الشعب، عرف أن النبي ﷺ وصحبه بداخله، وأنه حارس القوم، فوتر قوسه، وتناول سهماً من كنانته، ورماه به فوضعه فيه، فانترعه عباد من جسده، ومضى متدفقاً في تلاوته، غارقاً في صلاته، فرماه الرجل بأخر فوضعه فيه، فانترعه كما انتزع سابقه، فرماه بثالث، فانترعه كما انتزع سابقه، وزحف حتى غدا قريباً من صاحبه عمار، وأيقظه قائلاً: «انهض، فقد أثخننتي الجراح. فلما رآهما الرجل ولي هارباً» (ص ٢٤٨).

«إنفاق المال في سبيل الله:

وهذا رجل ينفق ماله في سبيل الله لا يبغى إلا المثوبة عند الله، وهو عبد الرحمن بن عوف، فقد أراد رسول الله ﷺ تجهيز سرية، «فوقف في أصحابه وقال: تصدقوا فإنني أريد أن أبعث بعثاً، فبادر عبد الرحمن بن عوف إلى منزله وعاد مسرعاً، وقال: يا رسول الله! عندي أربعة آلاف، ألفان منها أقرضتهما ربي، وألفان تركتهما لعيالي، فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: يارك الله لك فيما أعطيت، وبارك الله لك فيما أمسكت.

ولما عزم الرسول عليه الصلاة والسلام على غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها في حياته، كانت الحاجة إلى المال لا تقل عن الحاجة إلى الرجال... فهب المسلمون يستجيبون لدعوة النبي عليه الصلاة

وتمت البيعة لأبي بكر، فأمر بإفناذ بعث أسامة... ولما انطلق الجيش بقيادة قائده الشاب، شيعه خليفة رسول الله ماشياً وأسامة راكب، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله! والله لتركبن أو لأنزلن، فقال أبو بكر: والله لا تنزل، والله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، ثم قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فائذن له بالبقاء معي، فأذن أسامة لعمر بالبقاء» (ص ٢٢٢-٢٢٥).

«الصمود في الحرب:

وفي خضم المعركة، يصمد جعفر بن أبي طالب، وقد نزل به ما نزل، حتى يجود بروحه، «ففي أوائل السنة الثامنة للهجرة جهز الرسول صلوات الله عليه جيشاً لمنازلة الروم في بلاد الشام، وأمر على الجيش زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد أو أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر أو أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة أو أصيب فليختر المسلمون لأنفسهم أميراً منهم، فلما وصل المسلمون إلى مؤتة... وجدوا أن الروم قد أعدوا لهم مئة ألف... أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف، وما إن التقى الجمعان ودارت رحى المعركة حتى خر زيد بن حارثة صريعاً... فما أسرع أن وثب جعفر بن أبي طالب عن ظهر فرسه... وحمل الراية وأوغل في صفوف الروم، وظل يجول في صفوف الأعداء بسيفه ويصول حتى أصابته ضربة قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فما لبث أن أصابته أخرى فقطعت شماله، فأخذ الراية ب صدره وعضديه، فما لبث أن أصابته ثالثة شطرته شطرين» (ص ٢٦٨).

«الصبر على الألم في طاعة الله:

والصور لا ترد جافة تقريرية مباشرة كالخبر في صحيفة، بل تأتي في مشهد حي، ومن ذلك تصويره عباد بن بشر: «كان الليل ساجياً هادئاً وادعاً، وكان

والسلام، وكان في طلعة المتصدقين عبد الرحمن بن عوف، فقد تصدق بمئتي أوقية من الذهب...

ولقد بلغ من بر عبد الرحمن بن عوف بالمسلمين وأمهات المؤمنين - بعد وفاة رسول الله ﷺ - أنه باع أرضاً له بأربعين ألف درهم، فقسمها كلها في بني زهرة وفقراء المسلمين والمهاجرين...

وفي ذات يوم قدمت عير عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة، وكانت مؤلفة من سبع مئة راحلة، وهي تحمل على ظهورها الميرة والمتاع وكل ما يحتاج إليه

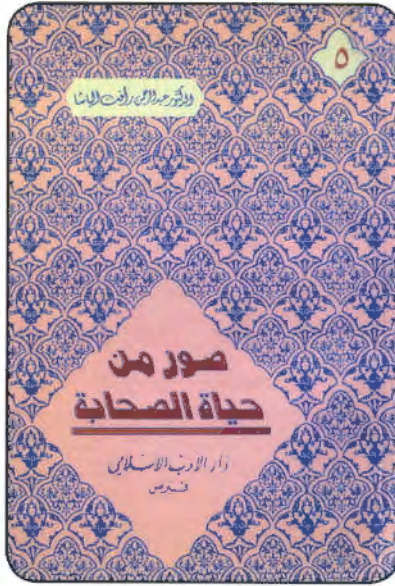
الناس، فما إن دخل المدينة حتى رجت الأرض بها رجاً، فقالت عائشة رضوان الله عليها: ما هذه الرجة؟ ف قيل لها: عير لعبد الرحمن بن عوف، فقالت عائشة رضوان الله عليها: بارك الله له فيما أعطاه، ولثواب الآخرة أعظم، وقبل أن تبرك النوق كان الخبر قد نقل إلى عبد الرحمن بن عوف، فما إن لامست مقالة أم المؤمنين سمعه حتى طار مسرعاً إلى عائشة وقال: أشهدك يا أمة أن هذه العير جميعها بأعمالها وأقتابها وأحلاسها في سبيل الله...

ولما حضرت عبد الرحمن بن عوف الوفاة اعتق خلقاً كثيراً من مماليكه، وأوصى لكل رجل بقي من أهل بدر بأربع مئة دينار ذهباً، فأخذوها جميعاً، وكان عددهم مئة، وأوصى لكل واحدة من أمهات المؤمنين بمال جزيل، ثم إنه بعد ذلك كله خلف لورثته مالا لا يكاد يحصيه العد، حيث ترك ألف بعير، ومئة فرس، وثلاثة آلاف شاة....

لكن ذلك المال كله لم يفتن عبد الرحمن بن عوف، ولم يغيره فكان الناس إذا رأوه بين مماليكه، لم يفرقوا بينه وبينهم، وقد أتى ذات يوم بطعام وهو صائم، فنظر إليه ثم قال: لقد قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، فما وجدنا له إلا كفناً إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجله بدا رأسه، ثم بسط الله لنا من الدنيا ما بسط، وإني لأخشى أن يكون ثوابنا قد عُجل لنا، ثم جعل يبكي وينشج حتى عاف الطعام» (ص ٢٥١-٢٥٦).

تلك بعض المواقف، وهي مواقف وراءها باعث واحد هو الإسلام، بما يحمل من قيم العدل والحق والخير وبناء الإنسان والمجتمع، وهي مواقف دافعها غاية واحدة هي حب رسول الله ﷺ، لا لأنه قريب أو صديق، أو من القبيلة أو العشيرة، بل لأنه حامل الرسالة، ومبلغها، ولأنه بين ظهرانيهم يرونه مثلهم يجوع كما يجوعون، ويحارب كما يحاربون، ويصدق كما يصدقون، ولا يملك شيئاً من متاع. وثمة هدف من هذا كله وهو رضا الله، لا طلباً لشهرة أو منصب أو مال، بل

هم أبعد ما يكونون عن مثل هذه الدوافع. هي صور لرجال من عامة الناس، ليسوا برسل ولا أنبياء ولا معصومين، ولا ملهمين ولا مدعين، فيهم الأبيض والأسود، والحشي والرومي والفارسي، وفيهم الغني والفقير، والعبد والسيد، والفتى الشاب والكل الشايب، ولكنهم جميعاً ينشدون طاعة الله، ويبتغون مرضاته، وهم جميعاً يحبون رسول الله





طويل القامة، عظيم الهامة، بصيراً باقتفاء الأثر، صبوراً على أهوال الطريق، وكان إلى ذلك كله أريباً لبيباً شاعراً، وكان فرسه من عتاق الخيل» (ص ٤٤٤).

وفي هذا الوصف ترشيح لما سيكون من بعد من اقتفاء سراقه أثر محمد ﷺ لدى هجرته إلى المدينة، وما سيكون من أمر فرسه وقد غاصت قوائمه في الرمل. ومن ذلك أيضاً وصف أسامة بن زيد والحسن عليهما السلام: «وكان الحسن أبيض أزهر رائع الحسن شديد الشبه بجده رسول الله ﷺ، وكان أسامة أسود البشرة، أفتس الأنف، شديد الشبه بأمه الحبشية».

وفي هذا الوصف تمهيد للإشادة بحب رسول الله ﷺ لهما، وعدله فيهما: «فما كان يفرق بينهما في الحب، وكان يأخذ أسامة فيضعه على إحدى فخذه، ويأخذ الحسن فيضعه على فخذ الأخرى، ثم يضمهما معاً إلى صدره ويقول: اللهم، إني أحبهما، فأحبهما» (ص ٢٢٠-٢٢١).

وواضح ما في الوصف من ترشيح للحديث عن عدل محمد رسول الله ﷺ، وحبه الأطفال الصغار، وإشفاقه عليهم، من أقارب وأبعد.

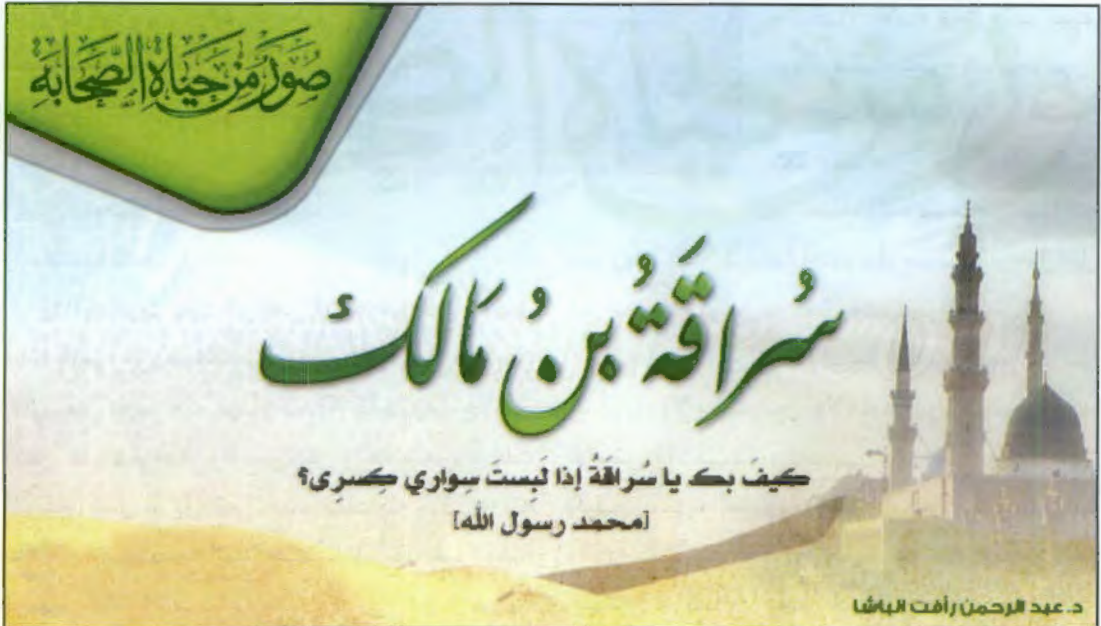
ويطيعونه؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أنه من يطع الرسول فقد أطاع الله.

«عناصر السرد في صور من حياة الصحابة»

وصف الشخصية :

والكتاب يصور المواقف بأسلوب سردي ممتع، تتوافر فيه معظم خصائص السرد، ومنها وصف الشخصية، ففي بعض المواضع يبرز وصف الشخصية خلقاً وخلقاً بلغة موجزة، ومن ذلك وصف أبي عبيدة بن الجراح، حيث يقول: «كان وضيء الوجه، بهي الطلعة، نحيل الجسم، طويل القامة، خفيف العارضين، ترتاح العين لمراه، وتأنس النفس للقياء، ويطمئن إليه الفؤاد. وكان إلى ذلك رقيق الحاشية، جم التواضع، شديد الحياء، لكنه كان إذا حزب الأمر وجد الجد يفدو كاللث عادياً، فهو يشبه نصل السيف رونقاً وبهاء، ويحكيه حدة وبهاء» (ص ٨٩).

ووصف الشخصية لا يأتي لمجرد الوصف، وإنما يأتي لغرض مقصود، ومن ذلك وصف سراقه، وقد جاء فيه: «كان سراقه بن مالك فارساً من فرسان قومه المعدودين،



نهاية غير محددة:

صباح وجلة مذعورة، فقد سرى في أنديتها أن محمداً قد بارح مكة مستتراً بجنح الظلام، فلم يصدق زعماء قريش النبأ، واندفعوا يبحثون» (ص ٤٤١)، ثم رصدت قريش مئة من الإبل لمن يأتيها بمحمد، ثم كان ما كان من أمر سراقه.

وقد تبدأ بعض الصور بالحديث عن المكان والقبيلة، ومن ذلك الحديث عن أبي ذر الغفاري، حيث جاء فيه: «في وادي ودان الذي يصل مكة بالعالم الخارجي كانت تنزل قبيلة غفار، وكانت غفار تعيش من ذلك النزر اليسير الذي تبذله لها القوافل التي تسعى بتجارة قريش ذاهبة إلى بلاد الشام أو آتية منها، وربما عاشت من قطع الطريق على هذه القوافل إذا هي لم تعطها ما يرضيها، وكان جندب بن جنادة المكنى بأبي ذر واحداً من أبناء هذه القبيلة» (ص ١٤١).

وتبدأ بعض الصور بمشهد كلي شامل، يبرع الكاتب في وصفه، ومنه المشهد الآتي: «في ذات مساء من أماسي مكة الهادئة الهائئة الوادعة، خرج سعيد بن العاص بن أمية المكنى بأبي أحبيحة من دارته في أعلى الحجون يريد الحرم، وقد اعتم بعمامته الحمراء الثمينة الزاهية، وخلع على منكبيه برداً من حلل ملوك اليمن، ومشى بخيوط الذهب، ومشى بين يديه طائفة من غلمان المقلدين بالسيوف، وكان عن يمينه بعض أولاده، وعلى رأسهم ابنه خالد، وكان عن شماله طائفة من رجال قومه بني عبد شمس، وهم يخطرون في حلل الديباج والسندس» (ص ٤٣١).

اعتماد كثير من الصور على الحلم

وتعتمد كثير من الصور على الحلم، ومنها حلم رآه عباد بن بشر في الليلة التي سبقت المعركة رأى: «فيما يراه النائم أن السماء انفجرت له، فلما دخل فيها ضمته إليها، وأغلقت عليه بابها، فلما أصبح حدث أبا سعيد الخدري برؤياه، وقال: والله إنها الشهادة يا أبا سعيد» (ص ٢٤٩).

وغالباً ما تنتهي الصور بالحديث عن الوفاة، ولكن بعض الصور تنتهي نهاية غير محددة، كما في الحديث عن أسامة بن زيد، إذ ينتهي بالقول: «ظل أسامة بن زيد، ما امتدت به الحياة موضع إجلال المسلمين وحبهم، وفاء لرسول الله ﷺ، وإجلالاً لشخصه، فقد فرض له الفاروق عطاء أكثر مما فرضه لابنه عبد الله» (ص ٢٢٥).

أو قد تنتهي صورة الصحابي بموقف متميز من مواقف حياته، ومن ذلك موقف صهيب الرومي، إذ لحق برسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً، ولكن قريشاً تبعته، وحاصرته، فعرض عليهم أن يترك لهم ماله، فوافقوا، فدلهم عليه، (ص ١٩٨، ١٩٩).

خواتيم موضوعات صور من حياة الصحابة:

وغالباً ما تختتم كثير من الصور بتعليقات تقرظية، تربوية، استطرادية، لا تضيف جديداً، ومنها قوله في ختام الحديث عن أسامة بن زيد: «رحم الله هذه النفوس الكبيرة، فما عرف التاريخ أعظم، ولا أكمل، ولا أنبل من صحابة رسول الله ﷺ» (ص ٢٢٦).

ومن ذلك أيضاً اختتام الحديث عن عمير بن سعد، بالقول: «رضي الله عن عمير بن سعد وأرضاه، فقد كان نمطاً فريداً بين الرجال، وتلميذاً متفوقاً في مدرسة محمد بن عبد الله» (ص ٢٤٨).

إن مثل هذه الخواتيم هي مجرد تعليقات لا تضيف جديداً، وهي ضرب من الإسهاب، ولكن توجه المؤلف إلى الفتیان اقتضى مثل هذا الضرب من التعليق.

استهلال الصورة:

وقد تبدأ الصورة بحدث مفاجئ، وما يقتضيه ذلك الحدث بعد ذلك من ردة فعل، كما في صورة سراقه، حيث تبدأ بالحدث الذي أدهش قريشاً، وهو هجرة رسول الله ﷺ، وهي التي كمنت له عند باب داره تريد قتله، وتبدأ الصورة على النحو الآتي: «هبت قريش ذات



ما يروى هو حقيقة وواقع، وهو يناسب هذا النوع من السرد، التاريخي التعليمي، ويرد في مواضع كثيرة، منها: «ولا ريب في أنك تود أن تعرف هؤلاء الخمسة الذين يشبهون نبيك عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فتعال نتعرف عليهم» (ص ٢٥٧).

ومنها: «لاتحاول أيها القارئ الكريم أن تخمن من يكون الرجل الصريع، أما قلت لك: إن عنف التجربة فاق حسابان الحاسبين، وجاوز خيال المتخيلين، ولقد يتصدع رأسك إذا عرفت أن الرجل الصريع هو عبد الله بن الجراح والد أبي عبيدة» (ص ٩١).

ومن الممكن الوقوف بعد ذلك عند عناصر سردية كثيرة منها: الحوار والسبق والاسترجاع؛ مما هو مألوف في السرد عامة وفي القصة خاصة، وهي جميعاً عناصر متوافرة في صور من حياة الصحابة، وقد تم التعامل معها فنياً بما يخدم هدف الصور، ويحقق الغاية المرجوة منها.

ومن ذلك حلم رآه عوف بن مالك الأشجعي، وقد رأى «فيما يراه النائم مرجاً أخضر فسيح الأرجاء، وارف الأفياء، فيه قبة عظيمة، من آدم، حولها غنم رابضة لم تر العين مثلاً قط، فقال: لمن هذا؟ فقيل له: لعبد الرحمن بن عوف، فطلع عليه عبد الرحمن من القبة، وقال له: يا بن مالك، هذا ما أعطانا الله عز وجل بالقرآن، ولو أشرفت على هذه الثنية لرأيت ما لم تر عينك، وسمعت ما لم تسمع أذنك، ووجدت ما لم يخطر على قلبك، فقال ابن مالك: ولمن ذلك كله يا أبا محمد؟ فقال: أعده الله عز وجل لأبي الدرداء، لأنه كان يدفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر» (ص ٢١٠).

قطع السرد وخطاب المتلقي؛

وفي كثير من المواضع يتم قطع السرد، والخروج عنه، لخطاب المتلقي، وفي هذا الخروج نوع من التواصل مع المتلقي، وتبنيه له، وإيقاظ نوعيه، لهدف تعليمي تربوي، وهو خروج يكسر الإيهام، ويؤكد أن



«طبيعة السرد في صور من حياة الصحابة»

وفي علاقات متشابهة، وتحقق مفهوم الشبكة وشكلها لتؤكد وحدتها وانسجام بعضها مع بعضها الآخر. إذ لا يمكن أن يظهر من يضحي بماله كله لتجهيز جيش أو توزيعه كله في الفقراء في وقت لا يظهر فيه من يتخلى عن قومه وعشيرته، وعن أمه وأبيه، وزوجه وأولاده؛ من أجل مبدئه. كما لا يمكن أن يكون هذا أو ذاك في وقت لا يندفع فيه فتى للمشاركة في ذلك الجيش أو حمل لوائه والقتال فيه حتى الرمح الأخير.

إن المواقف متراسة وإن عرضت فرادى، وهي متماسكة وإن بدت أحادية، وهي مواقف لا بد أن ينهض بها أفراد لصنع المجتمع، وحسبها تماثلها وتشابهها، وقوامها جميعاً التضحية بالنفس والمال والشهوات والرغبات، والتخلي عن الأشياء من أجل القيم العليا متمثلة الإسلام ومتمجة إلى طاعة الله وحب رسوله.

وقد يسأل سائل: كيف فعل أولئك ما فعلوا؟

وقد يخطر على البال أنهم فعلوا ما فعلوا لأن رسول الله حي معهم وبين ظهرانيهم.

ولكن الأمر ليس كذلك، فقد فعلوه لأنهم يؤمنون بالله، ويصدقون رسوله. وكثير من المواقف كانت بعد وفاة رسول الله، ولم تتغير.

«مواقف المرأة في صور من حياة الصحابة»

وللمرأة في ذلك المجتمع مواقف هي مثل مواقف الرجال، ولا تختلف عنهم، بل ما كان من الممكن أن تكون للرجال مثل تلك المواقف إن لم يكن للمرأة مثل تلك المواقف، فلقد وزع سعيد بن عامر وهو والي حمص ما أتاه من مال خالص له على الفقراء وأعانتة زوجته على ذلك (ص ٢٦).

ويتزوج خالد بن سعيد بن العاص أم حكيم بنت الحارث، وفي صباح اليوم التالي يخرج للقاء الروم في مرج الصفر قرب دمشق، فيقتل! «عند ذلك هبت أم حكيم كاللبؤة التي أخذ منها أشبالها، فشدت عليها

والقصص تعبر عن روح التفاؤل، وتتشرب طيفاً من الأمل، وضياء من الثقة، وهي أبعد ما تكون عن تصوير القلق والضياع والتمزق، وهي أبعد ما تكون عن تصوير الإنسان وهو يتحول إلى شيء، أو يبحث عن شيء. بل هي تؤكد أن الإنسان حامل قيمة، وساع إلى تحقيق قيمة، وأن الإنسان هو بعد ذاته قيمة، وهو يعي ذلك كله ويسعى إلى تحقيقه، والقصص لا تعي ذلك، ولا تطرحه في شعار أو قول، ولا تقدمه من الخيال، إنما تصوره وهو يتحقق في ساحة الواقع وفي ميدان التاريخ في مكان وزمان واقعيين.

ولعل القصص تبدو بالنسبة إلى القارئ المعاصر ضرباً من الخوارق والمعجزات والغرائب، بل لعلها تثير في نفسه الحيرة والقلق، أو تثير في نفسه الشك والسؤال، وربما أثارت لدى بعض المتلقين الشعور باليأس والإحباط، لأن الواقع المناقض لها قد يدفع إلى مثل هذه المواقف.

إن القصص وهي فرادى تصور رجالاً في مجتمع يتحركون في داخله، ويعملون لأجله، ومواقفهم كلها لأجل مجتمعهم، لبنائه وتغييره نحو الأفضل، فالقصص تتعلق بأفراد، وبمواقف في حياة أفراد، ولكنها ليست معلقة في فراغ، ولا مبنية في فراغ، بل هي متحركة في مجتمع، وعلى أرض الواقع، وبين بشر وأناس آخرين. والقصص في مجموعها تصور مجتمعات حياً متحركاً، ينبض بتلك الحيوانات، ولا يبرز فيه موقف ما من فراغ، ولا يأتي موقف آخر هكذا فجأة من غير دوافع أو مبررات، ولا يظهر موقف ثالث منبثقاً عن مواقف الآخرين.

إن مجموع المواقف يمثل شبكة علاقات بعضها يقود إلى بعضها الآخر، وهي جميعها تمثل شبكة خيوطها متصلة مترابطة وهي خيوط من نسيج واحد،



ولتواجه الفساد في الأزمان، ولتدعو إلى الخير والعدل، ولتقدم صورة تحققت وليست من الخيال، ولذلك كله ستكون طبيعة التعبير عن تلك الصور ناجمة عن تلك الأهداف، فالهدف هو الذي يحدد طبيعة الأشياء، وقيمة الأشياء تتبع من قدرتها على تحقيق أهدافها، وانسجام طبيعتها مع أهدافها، ومن الأهداف والطبيعة تتبع معايير النجاح، وقيم التوصيل والأداء.

ومن هذه المعايير يمكن القول: إن الصور قد حققت أهدافها، وانسجمت طبيعتها مع أهدافها، ومن الصعب بعد ذلك أن نبحث في الصور عن معايير هي معايير القصة في أدب أمم أخرى في عصور أخرى سابقة أو لاحقة، وحسب الكتاب فضلاً أنه سد ثغرة، فقدم بأسلوب سردي صوراً من حياة الصحابة، وكان هذا الأسلوب منسجماً ودالاً ومعبراً، وحسب العمل فخراً أنه يطبع هنا وهناك، في مصر والشام ولبنان، طبعات كثيرة، مما يدل على نفاد الطبعات، وعلى إقبال القراء، وهو معيار لا يمكن إغفاله، وما يزال الانتشار معياراً يذكر اليوم، ويأخذ به الكاتب والناقد والناشر. إن كتاب «صور من حياة الصحابة» عمل أدبي ممتع بأسلوبه السردى المشوق، ومن الجدير أن يقرأه الكبار والفتيان، لمعرفة مجتمع، والاطلاع على أسلوب حياة من أجل الحق والعدل والسمو، ومن أجل ما يمثل قيمة الحياة ■

ثياب عرسها، واقتلعت عمود الفسطاط الذي شهد ليلة زفافها، وخاضت المعركة، فأردت سبعة من فرسان الروم» (ص ٤٤٠).

«نمو الشخصيات في القصص»

ومعظم الشخصيات نامية متطورة، يتغير موقفها، من الكفر إلى الإيمان، وما هو بالتغير الآلي السريع، إنما هو تغير قائم على معاناة، وبعد خوض غمار التجارب، ومن ذلك إسلام سراقه، فقد تبع النبي محمد ﷺ وهو في الطريق مهاجراً مع صاحبه أبي بكر إلى المدينة، وكان سراقه طامعاً في مئة من الإبل رصدها قريش لمن يأتيها بمحمد، وما كاد يصل إليه حتى أعلن إسلامه بين يديه، لما رأى من وضاءة وجهه، وحلو حديثه، ولما عانى سراقه نفسه، فقد غاصت أقدام فرسه في الرمال، فاستنجد بمحمد كي يدعوه ربه، ووعدته ألا يلحق به، فأنجده، ودعا له ربه، ولكن سراقه غدر، فقد رفع سيفه ليضرب محمداً فجمدت يمينه، وغاصت أقدام فرسه ثانية في الرمال، فاستنجد بمحمد ثانية، ورجاه أن يدعوه ربه، فدعا له! وهنا أعلن سراقه إسلامه بين يدي محمد، وهو الذي كان يريد قتله.

«صور من حياة الصحابة: طبيعتها وأهدافها»

ومن الضروري أن نقدر (صور من حياة الصحابة) بمفاهيم أولية تتعلق بفن السرد تتبع من وظيفة تلك الصور ومن طبيعتها، وهي صور انتقيت لتعلم الفتیان،

«من الواضح أن نقد الباشا النثري يستند إلى اللغة والمنهجية والمصطلحية والمعرفية من الموروثات العربية الأصيلة الكثيرة إلى الحداثة المتجلية في إبداعات الحاضر منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم، على أنها لا ينبغي أن تنقطع عن الأصول الثقافية العربية التي صارت راسخة وثرية في المباني والمعاني».

د. عبالله أبو هيف - سورية

شجاعة